

من أسرار القرآن الكريم الدكتور/ أحمد الشرباصي

للقرآن الكريم من العجائب والأسرار ما لا يُحصى، وهذه المقالة تعرض لبعض أسرار القرآن الكريم في طريقته وأسلوبه ونظمه، وغير ذلك.

من أسرار القرآن الكريم [1]

القرآنُ الكريم، والذكرُ الحكيم، والكتابُ المبين، والنورُ الهادي إلى صراط العزيز الحميد؛ هو هدية السماء إلى الأرض، ومائدةٌ تنزلت من الملاء الأعلى لتغذية العقول والقلوب والأرواح، وش رعة العليم الحكيم للعباد في كلِّ زمان ومكان، ودستور

أَحْكَمَتْ آيَاتِهِ فَلَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَسَبِيلٌ لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءَ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَنَبْرَاسٌ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ، وَيُفْضِي إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْبِرِّ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمَلَ بِهِ أَجْرٌ، وَمَنْ حَكَّمَ بِهِ عَدْلٌ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

وكتاب إلهي ربّاني هذه بعض صفاته، وتلك طائفة من سماته، لا بد أن يكون له من الأسرار ما لا يتناهى، ومن العجائب واللطائف ما لا يحصى، ومن الحكم والرموز ما لا يُستقصى. وأي عبد عاجز يستطيع أن يحصي أسرار خالق بعض صفاته أنه الأول والآخِر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم؟! ويُقال في شأن كلماته: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) [الكهف: 109]، ويقال فيها: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [لقمان: 27] ، ولكننا إذا عجزنا عن الإحصاء والاستقصاء فلا أقلّ من أن نُسعد قلوبنا، ونتسامى بنفوسنا، ونعلو بأرواحنا، ونجلب الخير كل الخير لديننا ودنيانا، بأن نحاول الوصول إلى ما يدخل في نطاق الطاقة البشرية من أسرار هذا الكتاب اللّ دُني القدسي الذي تحيا به الأجسام والأفهام، وتستضيء بنوره الخواطر والنواظر، ويخرّ من هيئته وخشيته العباد والجماد: (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الحشر: 21]، (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى) [الرعد: 31] ، قال بعض المفسرين: إنّ الجواب هو: لكان هذا القرآن.

أول أسرار هذا الكتاب المجيد وأعظمها، وأشدّها في النفوس تأثيراً، وعلى القلوب

سيطرةً، أنه كتاب مُبين، لا تعاويز فيه ولا تمائم، ولم يتكوّن من الغاز ورموز خفيّة، بل تكوّن من نفس الحروف التي بها يتكلّمون، ومن نفس الألفاظ التي يردّدون، والذين أنزل عليهم هذا الكتاب هم فرسان البلاغة، وأساطين الكلام، ودهاقين القول، وأمرء البيان، يقرؤونه أو يسمعونّه فتنجذب إليه نفوسهم، وتخفق له أفئدتهم، وترتجف من وقعه أبدانهم والكثير منهم لم يؤمن به بعد، وينظرون إلى أجزائه فإذا هي سهلة ميسورة، وإلى معانيه فإذا هي ساطعة سطوع شمسهم الضاحية، ويخيّل إليهم من شدّة ضيائها وانتشار أنوارها واحتشاد أشعتها، أنها على مدى اليد منهم، يستطيعونها إذ يحاولونها، ولكنهم يفرغون جهدهم، ويستقصون وسائلهم، ويجمعون جموعهم، يرومون إليها وصولًا فلا يستطيعون، ويطلبون منها ذنوبًا فلا يقدرّون:

هي الشمس مسكها في السماء ** فعزّ الفؤاد عزاءً جميلاً

فلن تستطيع إليها الصّعود ** ولن تستطيع إليك النّزولاً!

وهكذا صدقت كلمة الله: (قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) [الإسراء: 88]. بل لا يستطيعون ما دون ذلك: (أم يقولون افتراه قُل فأتوا بعشر سورٍ مثله مُفترياتٍ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) [هود: 13].

أنه يستعمل الكلمة الجامعة الحاوية لكثير من المعاني، ومن أسرار القرآن الكريم الصالحة لعدد من التفسيرات، مما لا يناقض بعضه بعضاً، بل مما ترتضيه العقول وتطمئنّ به القلوب، وتصلح به أحوال الذين أنزل إليهم في مختلف العصور والدهور والبيئات والمجتمعات، وأنت حين تتابع هذا الطريق، وتستحضر في نفسك طائفة من

هذه الكلمات الجامعة الشاملة المحيطة التي تفتح أمام قارئها أو سامعها آفاقاً عريضة وسبعة؛ ستعجب عجباً لا ينتهي، وتستطيع أن تأخذ على سبيل المثال كلمات: (العصر، والصلاة الوسطى، والكوثر، والنازعات، ومن شر غاسق إذا به)؛ لتعرف حين تدرس معانيها كيف يفسح أمامك المجال، وتتدفق بين يديك مناهل العلم وينابيع المعرفة، مما يسهل الشديد، وييسر العسير ويكثر السبل!

الإيجاز، وحذف ما ليس برئيسٍ ضروريٍّ في الموضوع، ومن أسرار القرآن الكريم والاكْتفاء برؤوس الحوادث وأمّهات العبارات، ولست أدري ماذا كان يكون حجم المصحف الشريف لو أنّ الحقّ تبارك وتعالى اتّبع فيه سبيل الإتيان بالمألوف والمعروف؛ إذن لكان المصحف المجيد في عشرات من كبار المجلدات والأسفار، وإذن لشقّ على الأمة حفظه والإحاطة به وجمع أطرافه في صدورهم؛ ولكنّ الله -وهو الذي لا يكلّف نفساً إلا وسعها- من الأمة هذا الدستور في هذا القدر الوجيز، ومع ذلك لم يعب كبيراً ولا صغيرة إلا أحصاها، وصدق الحق إذ يقول: (مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) [الأنعام: 38]، ولك أن تأخذ هنا على سبيل المثال قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ) [يوسف: 45-46]، فبين كلمتي: (فأرسلون، ويوسف)، كلام طويل مقدّر تفهمه العقول اللببية والقلوب الواعية؛ ولذلك سرر ولم يذكّر. وأن تأخذ أيضاً قوله تعالى: (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى) [النازعات: 18-20]، فبين كلمتي: (فتخشى)، و(فأراه) كلام كثير لا يلزم كره. وإن كانت النفس تلمحها؛ إذ الأصل: (فق ل هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى، فذهب موسى، ومعه أخوه هارون، وقالوا لفرعون قولاً ليّناً، ودواه إلى عبادة الله، فاستنكر فرعون واستكبر، وطالب بالدليل والبرهان، أو ل حجّ في

العناد والجدال، فأراد موسى أن يقنه عن طريق المعجزة، فأراه الآية الكبرى، وهي انقلاب العصا إلى حية تسعى!

أنّ الله - عز وجل - لم يجعله أبواباً مستقلة، ولم يفصل بين أجزائه بفواصل مملّة، بل جعله مثاني تقشعرّ منه جلود الذين آمنوا، وصاغه كالحلقة المفرغة لا يذرى أين طرفاها. ولعلّ بعض الغافلين يَعْجُ حين يرى الأسلوب القرآني في السورة الواحدة وهو ينتقل من العبادات إلى المعاملات إلى الأخلاق إلى العقائد إلى القصص، وهكذا، ويخيّل له أنّ ذلك لا يلائم كمال التقسيم - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ولكن الواقع أنّ الله - سبحانه وتعالى - بذلك الأسلوب قد أراد أن يلفت المسلمين إلى أنّ القرآن كلّ لا يتجزأ، وأحكامه مجموعة لا يتبعّض، وأوله كآخره، وأدناه كأقصاه، ومن أراد أن يأخذ منه شيئاً فليأخذه كله، فكله دواء وشفاء، وكله نور وضياء! وهذا بطبيعة الحال سيجعل المسلمين يَغنَوْنَ بسائر أجزاء القرآن حينما يطلبون منه جزءاً خاصاً؛ لأنهم لا بدّ لهم من المرور بسائر الأجزاء لكي يصلوا إلى ما يريدون.

؛ أنه يعرض قصص الأنبياء والمرسلين في صور مختلفة، وبأساليب متعدّدة، فتارة يعرضها مختصرة موجزة، وتارة يعرضها في مساواة وتوسّط، وتارة يسهب في موافقها ووقائعها ويفيض. وقد أراد القرآن من ذلك الوصول إلى الغاية في التذكير والتبصير، والتبشير والتحذير، والوعد والوعيد؛ وأراد أيضاً أن تجد كلّ طائفة ما يناسبها، وأن يجد الداعية لكلّ ظرف ما لائمه. ولو وقف المرشد مثلاً بين قوم أميين خالين، أو ظنة جبّارين، أو عامّيين جاهلين، وأراد أن يقصّ عليهم قصة موسى - عليه السلام - مثلاً، لكان واجباً عليه أن

يأتي من القصة الطويلة العريضة بما ورد في الأعراف، وطه، والقصص، وأشباهاها؛ ولكنه حين يتكلم مع قوم مثقفين متعلّمين، ستكفيه القصة موجزة مختصرة مركزة في قول الحق عزّ من قائل: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) [النازعات: 15-26]، ومن هنا تعرف السر في تكرير القرآن الكريم لعرض القصص النبوية في صور مختلفة.

وأخيراً؛ إنّ أسرار القرآن -كما قلت - فيضٌ لا يغيض، ومدد لا ينتهي، وسبيل لا درك غايتها، وقد ذكرت لك منها ما يصلح أساساً للسير، أو مفتاحاً للباب. والله نفاتحٌ يتعرّض لها المخلصون فيصون منها إلى ما يشاؤه الحقّ لهم كإخلاصهم، فألق دلوك في الدلاء، ولا تنسني من صالح الدعاء!

[1] نُشرت هذه المقالة في مجلة «الأزهر»، الجزء الثاني من المجلد العشرين، سنة 1368هـ، ص163. (موقع تفسير).